الفصل الثامن

الهولوكوست النازى
برهان الضرورة الملحة لدولة يهودية

استغلال الهولوكوست لتبرير وجود إسرائيل كدولة يهودية، قد تبدى واضحًا فى «إعلان استقلال إسرائيل» سنة ١٩٤٨م.

«إن الهولوكوست النازى، الذى طال ملايين اليهود فى أوروبا قد برهن مجددًا على الحاجة الملحة لإعادة بناء الدولة اليهودية التى سوف تحل مشكلة عدم وجود وطن لليهود بفتح البوابات أمام جميع اليهود، ورفع الشعب اليهودى إلى المساواة فى أسرة الأمم» (Mendes - Flohr And Reinharz 1995: 62).

سوف يبدو للوهلة الأولى أنه يكاد يكون مستحيلاً أن تجادل بشأن هذه العبارة. ففى كل الأحوال كان القصد من الهولوكوست النازى تدمير الشعب اليهودى فيما أسماه هتلر «الحل النهائى». (أو بالأحرى كان هذا هو المقصود من المذابح التى ارتكبت ضد اليهود والتى كانت فى قلب الهولوكوست ـ لا يجب أن ننسى أبدًا أن هناك ملايين آخرين كانوا ضحايا للهولوكوست: الرومانيين والمثليين والمعاقين والملايين من السلافيين والجنسيات الأخرى، هذا بالإضافة إلى أسرى الحرب السوفييت والمعارضين السياسيين بما فيهم الاشتراكيين والشيوعيين)، ومع ذلك فإن تأسيس الدولة الإسرائيلية كان يعنى استئصال شعب آخر وإبعاده، وهو الشعب الفلسطينى، والاستيلاء على أرضه وتحويله إلى شعب فقير معوز. لقد كان هذا بالنسبة للفلسطينيين «نكبة».

ثم قامت الدولة اليهودية الجديدة بإعادة تسمية الأرض الفلسطينية بالأرض «اليهودية»... وفى هذا الفصل نستطلع الحالة بالنسبة للدولة اليهودية فى الظلال المتطابقة لكل من الهولوكوست والنكبة. وهو يحاول الإجابة عن بعض الأسئلة الصعبة جدًا. هل من المشروع استغلال الهولوكوست للوصول إلى نتائج سياسية؟ كيف نخرج

بالنتائج السياسية الصحيحة؟ هل توصلت إسرائيل إلى النتائج السياسية الصحيحة؟ ويتم تناول هذه الأسئلة بثلاثة طرق، أولاً، من خلال كتاب لورنس لانجر، وهوباحث بارز فى الشهادة على الهولوكوست وفنها. وثانيًا، من خلال اختبار فائدة مفهوم الإمبريالية كجزء من الجدل فى اليسار الماركسى حول كيفية شرح الهولوكوست. وثالثًا من خلال المناقشة والجدل حول بعض المواقف الصهيونية المتعلقة بالإنقاذ من الهولوكوست، ومقاومته. وهناك من يرى أن كل تناول من هذه يحمل رؤى مهمة حول الهولوكوست مع تحذيرات ضمنية عن الأحكام السياسية التى تحتاج إلى الرد عليها.

والجزء الأخير من الفصل يحاول أن يجمع هذه الآراء الثاقبة معًا مع التحذيرات باعتبار ذلك وسيلة للتفكير فى الرابطة التى تجمع بين الهولوكوست والنكبة. ونقدم تعليقًا نقديًا أخيرًا على استغلال إسرائيل للهولوكوست.

وعندما نناقش الهولوكوست بهذه الطرق يكون هناك دائمًا خطر إضفاء الطابع الفكرى عليها والتعامل معها بشكل مجرد. وإلى حد ما فإن هذا أمر حتمى، ومع هذا فإنه يجعل أى شخص يتناول هذا الموضوع يشعر بعدم الارتياح. وحتى لو كان الأمر كذلك فإننى أحب أن أفكر أن هذا الفصل ربما يكون مساهمة متواضعة فى:

«الحوار القلق الذى لا يتوقف بشأن كيفية استيعاب حضارتنا للتفجر المناف للعقل الذى نسميه الهولوكوست، داخل الآمال المعقولة حول المستقبل، على حين يستمر هذا الجنون فى الهجوم على الذاكرة والخيال بشكل بالغ الأسى والقوة» (Langer 1998:21).

ماذا كان الهولوكوست؟

قد يبدو هذا عبثًا، بل قد يبدو سؤالا مهينًا، إلا أنه من المشكوك فيه ما إذا كان أى من آلاف الباحثين، والفنانين، والصحفيين، وغيرهم من الكتاب ـ بما فيهم الناجون من الهولوكوست الذين كانوا يناضلون للوصول إلى إجابة على مدى السنين ـ راضين تمامًا عن النتائج التى توصلوا إليها. وغالبًا ما اندلعت الخصومات المريرة الشرسة حول مزاعم ادعت إضفاء معنى على الهولوكوست. والواقع أن هناك مدرسة فكرية مقنعة

تضع الهولوكوست فى مكان «يتعدى» قدرتنا على الفهم. فعندما سئل، مثلاً، المؤرخ الذى يحظى باحترام كبير فى مجال دراسة الهولوكوست، راؤول هيلبورج، عما إذا كان للهولوكوست أى معنى، أجاب: «آمل ألا يكون لها معنى». كما أن حنًّا أردنت، اشتهر بترجمة الأدلة فى المحاكمة التى جرت بالقدس سنة ١٩٦١م، لأدولف، إيخمان، الذى كان من البيروقراطيين النازيين البارزين الذين تحملوا مسئولية تطبيق وتنفيذ الهولوكوست، على أنها «كلمات بذيئة للشر». وهنا يستشعر المرء حقائق بسيطة ولكنها عميقة تشى بمحدودية فهمنا. ومع هذا فإن الحقيقة، أن تجد كل الكتاب تقريبًا - وربما رغمًا عن أنفسهم فى بعض الحالات - يناضلون للخروج بتفسيرات متحذلقة ودروس سياسية أيضًا.

رؤية لورنس لانجر التحذيرية

لانجر واحد من أكثر المفسرين إنجازًا للشهادات الباقية على الهولوكوست والفن والأدب المتعلق به، وكان مرشده بريمو ليفى، الذى يحظى بالاعتراف بكونه واحدًا من أشهر الكتاب عن الهولوكوست والذى كان هو نفسه من الناجين من الهولوكوست، وتحول إلى الكتابة لكى يُضفى على تجاربه معنى.

وقد هالت ليفى محاولات تفسير الهولوكوست بالحجة «التى تضفى صفة الكونية» والقائلة بأن ما فعله الألمان «قد عكس فقط قدرة على العنف والشر مدفونة فى الطبيعة البشرية فى كل مكان» (Langer 1998: 33) وكان هذا بالنسبة لليفى مراوغة. وفى كتابه The Drowned and the Saved أوضح ليفى أن على الألمان أن يتحملوا مسئوليتهم المحددة عن جرائم النازى.

بيد أنه على الرغم من أنه كرس مقدمة كتابه «Pre-empting the Holocaust» للمصادقة على ملاحظات ليفى بشأن مخاطر «إضفاء الطابع العالمى» على الهولوكوست، فإن مقالة لانجر الأكثر توفيقًا، والتى تحمل عنوان «The Alarmed Vision» مقالة بارزة فى الكتابة عن الهولوكوست، من حيث توضيح رسالة «عولمة» الهولوكوست. وفى هذه المقالة يقوم لانجر بتحليل تفصيلى لشهادات الناجين من الهولوكوست: وهم يسكنون عالمين فى نفس الوقت، أحدهما مثبت فى الزمن

التتابعى، أى زماننا، والآخر مثبت فيما يسميه هو الزمن الاستمرارى. والزمن الاستمرارى يثبت وجود الناجى فى معسكر الموت إلى الأبد. والماضى ليس مجمداً وتتجدد الحياة فيه مرات ومرات، فهناك شعور طاغ «بأن المرء أخطأ مصيره المقصود بنجاته من موته المقدر» (Langer 1998: 72-3) فالناجون من الهولوكوست يحملون عبئًا طاغيًا من تجربة الموت يصعب تمامًا علينا أن نفهمه حق الفهم.

وعند هذه النقطة فى مقالته، فإن قوة ما يفهمه تبدو ذات تأثير يشبه الصدمة الكهربائية، ويسقط لانجر مقاومة مشكلات «عولمة» الهولوكوست. وهو يغير مزاجه تمامًا، على الرغم من عدم وجود ما يدل على هذا، والقارئ غير مستعد:

«إن حكايات مثل حكاياتها تهدد اعتمادنا على التماسك والعقل، والتوازن الأخلاقى والنفسى، الذى يشكل لنا الكائن المتحضر... إن شهادة مثل هذه ينبغى أن تجمعنا لا إلى الضحايا المتماثلين للشفاء، وإنما لإعادة مراجعة أسطورة الكائن المتحضر. إذ لا يمكن بعد الآن للطبيعة الإنسانية أن توضع فى مواجهة الطبيعة غير الإنسانية، كما لو كانت إحداهما هى الأمر الطبيعى والأخرى انحرافًا يمكن تقويمه. إن الوحشية التى تتخذ شكل العنف الذى يصيب الآخرين بالعجز ويقتلهم، قد صارت تعبيراً «عاديًا» عن الذات بدلاً من كونه تعبيراً نفسيًا..» (Langer 1998: 74).

ويخلص لانجر إلى نتيجة مؤداها أننا نعيش بالفعل فى عصر الوحشية. وهذا هو لب مقالته «Alarmed Vision». وفى مكان أسبق فى المقالة يعمد إلى تعميم الهولوكوست، حيث مات اليهود لكى يعيش الألمان، لكى يقترح ما يبدو أنه «مبدأ» فى عصر الوحشية: فيكتب أننا نعيش فى عالم:

«حيث يبدو الهدف من الحياة فى أغلب الأحيان هو موت الآخرين، نكون مجبرين على اعتبار انقلاب التوقعات بدلاً من تحقق الأحلام نموذجًا للكينونة والسلوك فى بعض الجماعات» (Langer 1998: 68).

والآن تبدى خواء رؤيا لانجر بالفعل. فهو لا يقدم إطاراً تفسيريًا أو حلاً، وهو فى الواقع يقول ضمنًا إن الإطار أو الحل قد لا يكونا متاحين إطلاقًا (Langer 1998: 202n. 7).

ومع هذا، فإن استنتاجه «أنه فى عصر الوحشية تعتمد الحياة أحيانًا على موت

الآخرين»، يلقى وهجًا فظيعًا على المشهد السياسى العالمى المعاصر. فنحن هنا بإزاء رؤية ثاقبة تحذيرية حقًا، وإنذارًا مؤكدًا عن الحاجة لاتخاذ فعل للرد فى التوّ.

هذه الفكرة القائلة بمبدأ الحياة القائمة على أساس الموت، هى بالضبط النص الباطن لمناقشة رئيسية تضمنها كتاب «هو بسباوم» ذائع الصيت عن تاريخ القرن العشرين القصير بعنوان (The Age of Extremes).

إن الحرب العالمية الثانية، التى كانت أوشفيتز فى قلبها، كانت هيروشيما خاتمتها: «لقد كان إسقاط القنبلة الذرية غير مبرر باعتبار ذلك أمرًا لا غنى عنه لتحقيق النصر، ولكنه كان مبررًا لإنقاذ حياة الأمريكيين» (Hobsbawm 1994: 27) **وبعبارة أخرى اعتمد الأحياء الأمريكيون على اليابانيين الأموات. ولا يبدو غريبًا أن ليفى واحد من أوائل شهود هوبسباوم فى كتاب** (The Age of Extremes Hobsbawm 1994: 1)[1].

وإذا صدق مبدأ «الحياة فى مقابل الموت» من ملامح عصرنا حقًا، عصر الوحشية، فإن الصهيونية والصهاينة إذن ينبغى أن يفكروا بعناية شديدة فى الدروس التى يستخلصونها من الهولوكوست. **ألم يقم المشروع الصهيونى، جزئيًا على الأقل على أساس إنقاذ حياة اليهود على حساب موت الفلسطينيين إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك؟ سأعود إلى هذا الموضوع فيما بعد فى هذا الفصل.**

الإمبريالية والتطهير العرقى الذى نسميه الهولوكوست

كتب أدولف هتلر فى كتابه «Mein Kampf» سنة ١٩٢٥ : «إن الإمبراطورية العملاقة فى الشرق على وشك الانهيار» «ونهاية الحكم اليهودى فى روسيا سيكون أيضًا نهاية روسيا كدولة».

وقد وصف يان كيرشاو، الذى يقال إنه أحسن من كتب سيرة هتلر- كيف أن رؤية هتلر الشخصية للعالم قد جمعت بين مكونين رئيسيين : هما تدمير اليهود وحيازة الفضاء الحيوى - حيث قال :

«إن الحرب ضد روسيا سوف تؤدى، من خلال القضاء على البولشفية اليهودية، إلى أن تنال ألمانيا خلاصها فى الوقت نفسه بتوفير مجال «حيوى جديد». كان هذا الذى يعود إلى إمبريالية أواخر القرن التاسع عشر، ومع كونه قاسيًا تبسيطيًا، وبربريًا، انتقل إلى أوروبا الشرقية فى القرن العشرين حيث اختمر، كان مفعوله سريعًا على أولئك الذين كانوا على استعداد للعمل به» (Kershaw 1998: 250).

وإذا ما نحينا جانبًا الظروف التى أتاحت لهتلر والحزب النازى أن يمسك بزمام السلطة فى ألمانيا، فإن لدينا هذا المنطلق لفهم بعض العمليات التى أدت إلى الهولوكوست.

ولاشك فى أن العمليات كانت إبادة جماعية. إذ إن Mein Kampf حافلة بالتهديدات لليهود. هؤلاء «العالميون الذين يسممون الجماهير» كان ينبغى «استئصالهم» (Kershaw 1998: 244). وبطبيعة الحال، فإن الشكل الدقيق للإبادة الجماعية ليس واضحًا. وعلى أية حال فإن الحرب ضد روسيا وسكانها السلاف، كانت تمثل تهديداً بالإبادة الجماعية الأكثر عمومية لكل شعوبها.

وكون أن السلاف كانوا بشرًا أدنى Untermenschen ، كان يؤخذ على أنه افتراض مسلَّم به، كما كان ذا جذور عميقة فى الثقافة القومية الألمانية (Kershaw 1998: 79).

وقبل الغزو النازى لروسيا فى بواكير سنة ١٩٤١م مباشرة، أخبر هيملر قادة الصاعقة أنه ينبغى القضاء على حوالى ثلاثين مليون من السلاف، وقد أسماها هتلر «حرب إبادة» (Kershaw 2000: 353, 339).

وكانت كذلك. إذ تم ذبح الملايين. وليس هناك اتفاق حتى على رقم تقريبى، إلا أنه لا يقل عن ٣,٣ مليون أسير حرب روسى (Hobsbawm 1994:43).

ومن المؤكد أنه يحتمل أن نفهم حرب الإبادة النازية فى القرن العشرين باعتبارها تعديلاً للإمبريالية الأوروبية ذات الطرز القديمة ونظرياتها المستمدة من القرن التاسع عشر عن علم الأجناس البيولوچى، على الرغم من أن الإبادة النازية كانت لها خصائصها المرعبة. وهذا هو السبب فى أن الفلاسفة والكتاب اليهود، على تنوعهم مثل: حنا أردنت، وچورچ شتاينر وشاول فريد لاندر ليسوا على صواب تمامًا عندما

يجادلون بأن الهولوكوست حالة فريدة؛ لأن النازيين كانوا يستطيعون أن يختاروا من يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت على أساس الاختيار العرقى (Traverse 1999: 67)

مارست الإمبريالية ما أسماه شتاينر «مذابح وجودية»

ـ أى القضاء على الضحايا لا بسبب أفعالهم، وإنما لأنهم موجودون.

فعلا فقد تم اكتساح سكان أمريكا الأصليين؛ لأنهم وجدوا فى طريق المجال الحيوى الأوروبى فى أمريكا الشمالية. وكان هتلر فى بعض الأحيان يقارن الحرب ضد روسيا بالنضال الأوروبى فى أمريكا الشمالية «ضد الهنود الحمر» (Hitler's table Talk 2000: 621).

وفى وقت مبكر مثل سنة ١٨٣٠م، لاحظ السير چورچ موراى، الذى كان وزير دولة للمستعمرات يتسم بالإستنارة النسبية، أن حكومته ربما كانت قد بدأت سياسة استئصال «جنس» بأسره، هم شعب استراليا الأصلى. وقد حذر من أن «القضاء على الجنس المحلى يمكن أن يترك وصمة لا تُمحى على شخصية الحكومة البريطانية» (Reynolds 2001: 4).

وفى الهند أيضًا، كان معدل عمليات الإبادة البريطانية يأخذ العقل. ففى البنغال وحدها، تم ذبح ما يصل إلى عشرين مليونا من الناس بنهاية القرن الثامن عشر (Davidson 1999: 25).

وكان هتلر مبهورًا، ويشعر بغيرة عميقة، من تجربة البريطانيين فى الهند، وقد أشار إليها عدة مرات، شارحًا لماذا برهنت على أن ألمانيا تستطيع بسهولة أن تسود روسيا.

(Hilter's Table Tak 2000: 15).

وأهمية الإبادة فى عصرنا الذى تحكمه الإمبريالية قد هزت العديد من الكُتَّاب من اليسار واليمين، قبل استيلاء النازى على السلطة بزمن طويل. وهذا ما كتبته روزا لوكسمبرج:

«قال إنجلز ذات مرة: يواجه المجتمع الرأسمالى معضلة، فإما أن يتقدم إلى الاشتراكية أو يتقهقر إلى البربرية، وهكذا نقف اليوم أمام الاحتمال المخيف: إما أن تنتصر

الإمبريالية، ويتم تدمير الثقافة برمتها... والقضاء على الجماهير، والخراب، والتدهور، ويكون العالم مقبرة شاسعة، وإما أن تنتصر الاشتراكية» (Cited Rees 1998:160) .

كتبت تلك السطور قبل أن يكون القرن العشرون قد أماط اللثام عن أسماء : «السوم» أو «أو شڤيتز»، «وجولاج»، أو «هيروشيما». وفى حالة مماثلة، تنبأ عالم الاجتماع المحافظ ماكس ڤيبر بـ «ليلة قطبية ذات ظلام وقسوة ثلجية» (Traverso 1999: 75) . وفى وقت سابق كان ماركس قد استحضر تصويره المذهل للحكم البريطانى فى الهند، حيث قال «**الصنم الوثنى البشع الذى لن يرضيه شرب مشروبه إلا فى جماجم المذبوحين**» (Traverso 1999: 25) .

وكتاب تراڤيوسو المثير جداً الذى يحمل عنوان Understanding the Nazi Genocide, Marxism after Auschwitz يهتم بتطبيق الحجة على كراهية اليهود فى جوهر الهولوكوست وهو يحذر من أن الحجة والجدل يفشلان تماماً فى الإلمام بمدى ضخامة الجريمة . أولاً، لأن حرباً استعمارية تم شنها فى أوروبا، فى أواسط القرن العشرين، مستخدمة أدوات الدمار التى يمتلكها مجتمع صناعى متقدم، فقد ركزت الإبادة فى مدى سنوات قليلة فقط بدلاً من القرون أو حتى العقود . وثانياً، يجادل بأن اليهود «ليسوا مثل الأفارقة أو سكان أمريكا الأصليين، شعب مستعمر ولكنهم شعب له جذوره فى الحضارة الغربية» . والآن، إنصافاً لتراڤيوسو، كان واعياً لمخاطر هذا النوع من الجدل . ويمضى قدماً ليصر على أنه لا يقدم «سلماً تصاعدياً لتاريخ الإبادة» . وبدلاً من ذلك، فإن الهولوكوست قد أوضح مرحلة جديدة يسودها عنف الإمبريالية : إذ لم يعد الدمار الذى تفرضه الإمبريالية الغازية التى تفرض حكم الحضارة الغربية على العالم خارج أوروبا، وإنما بداية انهيار هذه الحضارة ما أسماه أدورنو وهورخيمر «تدمير العقل لذاته» (Traverso 1999: 126) .

ويقدر ما إن هذه الرؤية مثيرة ومحيرة ـ وهى تستحق من الاعتبار أكثر مما هو متاح هنا ـ فإنها ليست مرضية . ذلك أن تهكم غاندى يرد على البال مباشرة . فعندما سُئل عما يفكر به بشأن الحضارة الغربية، أجاب غاندى أنه كان يتطلع إليها . وعلى أية حال، فإن الحضارة فى شكلها الغربى، أو بشكل أكثر عمومية، لم تسقط، ولكن النظام النازى سقط . وسيكون من الأفضل أن نقول إن الهولوكوست كان بالنسبة لبقيتنا تحذيراً مرعباً عن نوع السياسات التى تهدد الحضارة بالفعل .

وقد لاحظ الكاتب الماركسى البريطانى أليكس كاللينيكوس مزيداً من الضعف فى تزكية تراڤيرسو لأدورنو وهورخيمر. فبالتعامل مع الهولوكوست فقط على أنه من أعراض فوضى حضارية أكثر عمومية تدمر «عصر العقل»، يتم تجاهل الأسباب المحددة للإبادة النازية (Callinicos 2001: 387). وهنا تكون السخرية لأن تراڤيرسو اتساقًا مع كاتب ماركسى آخر هو نورمان جيراس، قد قالا إن الماركسية ذاتها تنزع أكثر مما يجب لهذه النوعية من التعميمات وليست قادرة على تحليل الأسباب المحددة لبربرية النازى. وهذا الجدل يحمل أصداء مقالة ليڤى التى ناقشناها من قبل. وفى مقاله «عملية سبر الأغوار: الماركسية والهولوكوست» يسعى كاللينيكوس لتوضيح أن الماركسية يمكنها فعلاً أن تتصدى للتحدى.

وثمة جانبان مختلفان فى مقالة كاللينيكوس يستحقان أن نوليها اهتمامنا هنا وأن نحاول جاهدين فى تناول المكونات «الخصوصية» و«الفريدة» حقا فى الهولوكوست. والجانب الأول هو مركزية علم الأجناس البيولوچى، والهوس النازى تجاه اليهود. ويرى كاللينيكوس أن ملاحظة هتلر التى أبداها لهيملر سنة ١٩٤٢م مثيرة للحزن والأسى:

«إن اكتشاف الڤيروس اليهودى يعد إحدى أعظم الثورات التى حدثت فى العالم. والمعركة التى نخوضها من نفس نوع المعركة التى يخوضها كل من پاستير وكوخ، إبَّان القرن الماضى. كم من الأمراض كانت أصولها كامنة فى الڤيروس اليهودى.. إننا سوف نستعيد صحتنا فقط إذا استأصلنا اليهود» (Collinicos 2001: 402).

لم يكن اليهود هم «الجنس غير المناسب» الوحيد، أو المجموعة الاجتماعية التى كان يجب استئصال شأفتها. بيد أن اليهود كانوا على رأس القائمة فى السلم التدريجى، لأن هذا الجنس الأحط بين الأجناس كانت له قوة هائلة فى العالم. ولا يجب أبداً التقليل من شأن معدل الخيال الأيديولوچى النازى المعادى للسامية هنا. ذلك أن «الڤيروس» اليهودى كان يمسك «الحضارة الغربية» برمتها فى قبضته المميتة. وعلى حد تعبير هتلر، فإن اليهود هم الذين اخترعوا المسيحية مثلما اخترعوا الرأسمالية والشيوعية. ولكن ماذا كانت الحوادث التى عجلت بأن يقوم النازيون بالتعبير العملى النهائى عن كراهيتهم لليهود؟

يتفق الباحثون على أن غزو هتلر لروسيا قد أوجد السياق الذى يناسب الهولوكوست. وعلى أية حال، تبقى هناك مجادلة لم يتم حلها عن الحافز المباشر؛ إذ إن (مؤتمر وانسى غير الشهير فى يناير ١٩٤٢م لم يترك أى سجل مكتوب عن النية فى استخدام معسكرات الموت لتحقيق الحل النهائى).

وعلى سبيل المثال، يرى كريستوفر براوننج أن هتلر اتخذ القرار فى «غمرة النشوة بالنصر» فى روسيا فيما بين منتصف سبتمبر ومنتصف أكتوبر ١٩٤١م. أما مارتن بروسزات، من ناحية أخرى، فيرى أن هزيمة هتلر التى أطلت بوجهها بعد هذا مباشرة، كانت هى المفتاح الذى فتح معسكرات الموت (Cesarani 1994: 14,7).

ويقدم دفاع كاللينيكوس الحميم عن موقف بروسزات رؤية محتملة أكثر للعمليات التى أدت إلى الشكل المحدد للإبادة التى نسميها الهولوكوست؛ إذ يجادل بروسزات بأنه كلما صار عدم القدرة على تحويل العقيدة الأيديولوچية النازية «صوب مهام إعادة التنظيم البناءة» فى روسيا أكثر وضوحًا «زاد تركيز هذه السياسة الإيديولوچية بشكل حصرى على السياسات والأهداف السلبية» (Callinicos 2001: 404).

كانت عملية «إعادة التنظيم البناءة» تلك قائمة على أساس «الرؤية» النازية «لجماعة» ألمانية متجانسة اجتماعيًا، نقية عرفيًا (Volksgemeinschaft (Callinicos 2001: 394,398)، كان لها أن تمتد من ألمانيا إلى داخل روسيا حيث سيعيش المستعمر الألمانى الجديد «فى مزارع أنيقة، فسيحة» (Hitler's Table Talk 2000: 24). وقد حاق الدمار بهذه الرؤية عندما توقف الهجوم النازى فى نهاية ١٩٤١ أمام المقاومة العنيدة من جانب الجيش الروسى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مشروعات نقل اليهود إلى الأقاليم الأقل ملاءمة فى الاتحاد السوفييتى حيث كان من المؤكد هلاك غالبيتهم (كان هذا أيضًا سيكون إبادة نازية لليهود ولكن بشكل مختلف) لم تعد ممكنة (Callinicos 2001: 401)، (ويجادل كيرشاو بأن وانسى عكست المعضلة التى كان النازيون يواجهونها) وزادت كراهية اليهود. ذلك أن الحل النازى الاستئصالى ربما يكون قد ازداد صلابة بدخول جيش الولايات المتحدة فى الحرب أواخر سنة ١٩٤١م، وهو ما لام هتلر اليهود بسببه: «لم تعد المبادرة فى يد ألمانيا. . . وعلى الرغم أن الأمر لم يتضح تمامًا لعدة أشهر، فإن

مقامرة هتلر، التى راهن عليها بمستقبل الأمة، خسرت بشكل كارثى» (Kershaw 2000: 457) وبحلول نهاية العام كان قد تم ذبح أربعة ملايين يهودى (Kershaw 2000: 493).

وإذا كانت الصورة التى رسمناها فى السطور السابقة دقيقة بأى معيار، فما العبر التى نخرج بها؟

إن الجوانب الفريدة للإمبريالية النازية الألمانية لا يجب أن تعمينا عن رؤية بعض المسلمات عن الغزو الإمبريالى. فهو يميل «دائمًا» إلى سلوك الإبادة، وتضرب محاولات إضفاء المشروعية عليها بجذورها دائمًا فى الاختلافات العرقية والكراهية الجنسية. وتتزايد مشروعات الإبادة إذا ما كانت القوة العسكرية تنوى تطهير الأرض لتكون «مجالاً حيويًا» من جنس مزعوم أنه أدنى لصالح مجموعة عرقية يزعمون أنها أرقى. وربما تصبح الأيديولوچيات اليوتوبية، التى تبرر تطهير الأرض بالقوة باسم التفوق العرقى، أشد تعصبًا عن ذى قبل، وأكثر ميلاً للإبادة، عندما تواجه الفشل.

والصهيونية ليست مثل النازية. فليس فى جوهرها نية استئصالية، على الرغم من أن الصهيونية ـ كما سنرى ـ قد صارت قادرة على ممارسة الإبادة وتمارسها فعلاً. ولكن الصهيونية تمتد بجذورها فى الإمبريالية الأوروبية. وتكفى هذه الحقيقة وحدها لطرح تحذيرات عاجلة عن تطبيقات الطموحات الاستعمارية القاسية فى فلسطين.

قبل الطوفان: المواقف الصهيونية للإنقاذ والمقاومة

أريد الآن أن أتحول إلى مناقشة مختلفة للغاية تتعلق بالمواقف الصهيونية قبل الهولوكوست. وكان لا بد للمرء أن يفكر فى أنه بعد أن تولى النازيون السلطة فى ألمانيا سنة ١٩٣٣م، كان لا بد للصهاينة أن يكونوا فى الجبهة الأمامية لتنظيم المقاومة ضد النازى وإنقاذ اليهود منهم. بيد أنه كان هناك غالبًا غموض متعب بشأن هذا، لا سيما فيما بين زعماء الصهيونية، وهو ما يلقى شكوكًا بالفعل حول مصداقية الصهاينة الأخلاقية فى نفس الساحة التى ينبغى ألا يكون فيها أى شك. وهذا يثير أيضًا السؤال «العام» و«الخاص» بطريقة درامية تمامًا. **لأن السؤال المطروح هو ما إذا كانت الحاجات الخاصة للدولة اليهودية المنتظرة، كما يفهمها زعماء المستعمرة اليهودية فى فلسطين تحت**

السيطرة البريطانية فى ذلك الوقت، ينبغى أن تكون لها الأولوية على الحاجة إلى رد عالمى للأزمة اليهودية الماثلة، والتى تسبب فيها التهديد النازى القائم.

وقد أوضح مؤتمر إيڤيان سنة ١٩٣٩م الطريقة التى حكم بها بعض قادة الصهاينة على أولويات الإنقاذ. وكان ذلك المؤتمر بمبادرة من الرئيس روزڤلت للتنسيق بشأن حل عالمى للعدد المتزايد بإطراد من اللاجئين اليهود الساعين إلى الهرب من براثن السيطرة النازية. وبينما كانت نوايا مؤتمر إيڤيان شريفة دونما شك، فإن نتائجه كانت مخيبة (Wasserstein 1998: 8 - 9). وعلى أية حال، لم يكن هذا واضحًا بالمرة للكثير من المشاركين، الذين أخذوا مقاصد المؤتمر بجدية شديدة فعلاً. **وكان هذا يصدق بشكل خاص على المندوبين الصهاينة، الذين كان بعضهم قلقين من أن حصاد المؤتمر ربما يكون ناجحًا للغاية.**

كان هذا الموقف الغريب والمربك هو الذى أوضحه بن جوريون بحماسة عارمة دون سواه. ففى اجتماع ضم زعماء اليهود، من الصهاينة وغير الصهاينة، جاءوا من جماعات يهودية فى أجزاء مختلفة من العالم، **حذر بن جوريون من «الدمار، والخطر، والمصيبة التى يمكن توقعها من مؤتمر إيڤيان. إذ إنه يمكن أن يزيح فلسطين من الأجندة الدولية باعتبار ذلك عاملاً فى حل المسألة اليهودية»**. واستمر ليقول إن السبب هو أنه «فى عيون العالم، تشبه فلسطين إسپانيا الآن [حيث كانت تدور رحى حرب أهلية]. . هناك أحداث شغب. . وفى كل يوم يتم إلقاء القنابل». وهنا كان محقًا تمامًا. فقد كان الفلسطينيون قد أعلنوا «حرب» تحرير وطنية على المحتلين البريطانيين وحلفائهم الصهاينة. ولم يكن هناك سبيل آنذاك لأن تفتح بريطانيا فلسطين أمام المهاجرين اليهود. وكان المطلوب بإلحاح توفير حل بديل. و لاحظ بن جوريون أن روزڤلت توصل إلى نفس الاستنتاج. وحكى بن جوريون أن روزڤلت قال: «لم تستطع فلسطين حل المشكلة اليهودية، وينبغى البحث عن طريق مختلف». وبعبارة أخرى، يجب استيعاب المهاجرين اليهود فى مكان آخر. **ولكن بالنسبة لبن جوريون كانت هذه كارثة، وكان يريد لمؤتمر إيڤيان أن يفشل. وكما عبر هو عنها: «ينبغى علينا أن نحرص على ألا يجد هذا الاتجاه الخطير تعبيرًا عنه فى المؤتمر»** (Beit Zvi 1991: 228)[٢].

ولم يكن بن جوريون غريبًا أو شاذ الأطوار. بل على العكس، كان هو أبرز زعماء

الصهيونية فى القرن العشرين، كما لاحظنا فى عدة مرات. ونحن مخولون الحق فى إصدار أحكام عن الصهيونية من مواقف هذا الرجل وسلوكه. **بيد أن هذه المواقف قد كشفت عن نزعة قومية ضيقة، ومن المؤكد أنها قليلة القيمة، فى جوهر المشروع الصهيونى، الذى كان على استعداد للمخاطرة بأرواح اليهود «عشية» الهولوكوست.** وهذه ليست مبالغة. كما أنها لم تكن انحرافًا لصالح بن جوريون. لقد كرر هذه العبارات حتى فى شكل أكثر تنفيرًا. ففى خطاب إلى المكتب التنفيذى الصهيونى، فى السنة نفسها التى شهدت مؤتمر إيڤيان، كتب:

«إذا ما تعين على اليهود أن يختاروا ما بين اللاجئين، وإنقاذ اليهود من معسكرات التجميع، أو المساعدة فى إقامة متحف وطنى فى فلسطين، فإن الرحمة ستكون لها اليد العليا وسيتم توجيه طاقة الشعب كلها فى سبيل إنقاذ اليهود من بلدان مختلفة.

«سوف يتم استبعاد الصهيونية من الأجندة.. وإذا سمحنا بحدوث انفصال بين مشكلة المهاجرين والمشكلة الفلسطينية، فإننا نكون قد غامرنا بوجود الصهيونية» (Bober 1972: 171)[٣].

كان لموقف بن جوريون آثار حقيقية على الحياة والموت: فقد «عارض» مرة أخرى فى السنة نفسها خطة بريطانية للسماح بهجرة عدة آلاف من الأطفال اليهود الألمان إلى المملكة المتحدة:

«إذا عرفت أنه سيكون ممكنًا انقاذ جميع الأطفال فى ألمانيا بجلبهم إلى إنجلترا، ونصفهم فقط إلى أرض إسرائيل (فلسطين) فإننى سوف أميل إلى الخيار الثانى. لأننا يجب أن نزن ليس فقط حياة هؤلاء الأطفال ولكن أيضًا تاريخ شعب إسرائيل» (Brenner 1983: 149).

كان التأكيد على الحاجات المزعومة للدولة اليهودية المنتظرة على حساب أولوية الإنقاذ متسقًا مع الطريقة التى كان يمكن بها لهذا الموقف أن يساوم بشأن المقاومة ضد النازى، بل حتى يقترح التعاون معهم. فعندما استولى هتلر على السلطة فى سنة ١٩٣٩م، أرسل له الاتحاد الصهيونى فى ألمانيا مذكرة، لم تفقد قوتها الصادمة بعد سبعين سنة:

«هل يُسمح لنا إذن بأن نقدم آراءنا، التى هى فى نظرنا، تتيح حلاً فى الاحتفاظ بمبادئ الدولة الألمانية الجديدة فى الصحوة الوطنية، والتى قد تعنى فى الوقت نفسه بالنسبة لليهود تنظيمًا جديداً لظروف وجودهم.. والتى تتكون فى النهاية من نموذج غير عادى فى الاحتلال ، فى وضع فكرى وأخلاقى ليست له جذور فى تراثنا الخاص» (Brenner 2002: 42-3).

وتمضى المذكرة لكى تؤكد لهتلر أن الصهيونية سوف «تعارض» الحملة المعادية للنازية على اتساع العالم، والتى تنادى بمقاطعة البضائع الألمانية. وثمة تبرير لاحق لهذا السلوك غير المعتاد تمثل فى اتفاقية «الترحيل» التى سبقت الحرب بسوء سمعتها. ففى هذه الإتفاقية تم السماح لليهود الألمان بمغادرة ألمانيا مع بعض متعلقاتهم إلى فلسطين. على أن يتم فى الوقت نفسه بيع البضائع الألمانية لليهود فى فلسطين. وقد استولى الفزع على بعض اليهود غير الصهاينة وكذلك بعض الصهاينة من جراء مثل هذا التعاون(٤).

وثمة فزع من الصهيونية يبدو لكثير من المراقبين مستهلمًا حتى من النازية. ذلك أن حزب الليكود الموجود حاليًا، والذى هو حزب الأغلبية الحاكم حتى لحظة كتابة هذه السطور، نادرًا ما يعترف بهذا الشبح الذى يطل من غياهب الماضى. ومع ذلك، فإنه عندما قام أحد زعمائه الأكثر شهرة، والذى سيصبح رئيس الوزراء فيما بعد، وهو مناحم بيجين، بزيارة نيويورك فى نهاية سنة ١٩٤٨م، واجه هو ومنظمته السياسية هجومًا من أشهر عالم يهودى فى العالم وهو ألبرت أينشتين. وقد أدان أينشتين ـ شأن الكثير من اليهود الأمريكيين البارزين ـ بيجين فى جريدة نيويورك تايمز لأنه يقود حزبًا **«يشبه فى تنظيمه، ومناهجه، وفلسفته السياسية ودعوته الاجتماعية الأحزاب النازية والفاشستيه»** (Brenner 2002: 184).

و«الآراء الثاقبة» و«التحذيرات» واضحة بذواتها هنا. ففى الفترة التى يسميها برينر الصهيونية فى عصر الديكتاتوريين(٥)، كشفت الصهيونية عن سمة مزعجة ومخجلة، وهى استعدادها لإعطاء الأولوية لحاجاتها الخاصة على القضية العالمية الواضحة بحد ذاتها والخاصة بإنقاذ اليهود، مما يعنى قدرتها على محاكاة السلوك الشمولى لمن يعذبها.

الهولوكوست، الناجون منه، والنكبة

بينما بدأت حقيقة الهولوكوست تنجلي بعد الحرب، صارت أكثر قضية مقنعة رفعتها الصهيونية حتى ذلك الحين، بحيث قزَّمت ـ بصراحة ـ السلوك فيما قبل الحرب وأثنائها، وقزمت الأحكام التعسة لبعض زعمائها.

وبدأت إحدى العواقب الخاصة جداً والعملية جداً للهولوكوست تفرض نفسها بإلحاح متزايد على الحلفاء المنتصرين، ولا سيما بريطانيا. فأين يعيش الناجون من الهولوكوست الآن؟

كانت الحرب قد أنهكت بريطانيا. وكانت مطالب الاستقلال الوطني عالية الصوت وواضحة في جميع أرجاء الإمبراطورية. وربما كانت الثورة الوطنية العربية الفلسطينية قبل الحرب قد تقلصت بشكل مؤقت، ولكن صناع السياسة البريطانية كانوا يعرفون تمامًا أن الأمر لم ينته، وأنه من المحتمل أن تندلع مرة أخرى في أي وقت. وكانوا يواجهون آنذاك تهديداً جديداً، إذ كانت الميليشيات الصهيونية المستقلة مستعدة لمواجهة جيش الاحتلال البريطاني حول مسألة الهجرة إلى فلسطين من جانب الناجين من الهولوكوست (Pappe 2001: 21). وفي الحقيقة انهارت السياسة البريطانية بشكل مشين، وتم تمرير مستقبل فلسطين إلى الأمم المتحدة.

وليس هذا مكان مناقشة جدارة أو فعالية ما كان آنذاك مؤسسة دولية جديدة تمامًا تم تأسيسها، في أعقاب أكثر الصراعات العالمية دموية ورعبًا، في تحقيق العدالة ـ على المستوى البلاغي والخطابي على الأقل ـ العالمية وتأسيس آليات الحفاظ على السلم العالمي. ولكن پاپي، أحد الباحثين الإسرائيليين القلائل جداً المعادين للصهيونية، لاحظ أمرًا كاشفًا للغاية عن الاستجابة الأولية للأمم المتحدة تجاه الأزمة الفلسطينية. أما عن الأسباب التي تتعلق بالتفاعل بين سياسات القوة العظمى في الأمم المتحدة، لا سيما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، (Pappe 2001: 17-18)، فإن تدخل الأمم المتحدة في فلسطين قد تركتنا بإطلالة فريدة على الأحداث.

فقد تم تأسيس لجنة خاصة من الأمم المتحدة لفلسطين (UNSCOP) للتحقيق في

الوضع بها وتقديم تقريرها عنها. وقد سمحت الولايات المتحدة، فى محاولة لتقليل نفوذ الاتحاد السوفييتى على اللجنة، إلى حد ما، أن يكون تكوين اللجنة خارجًا عن أيدى القوى الرئيسية. وقد أعطى هذا للممثلين من بلدان أصغر، بما فيه بلدان العالم النامى، رأيًا أكبر مما كان يمكن أن يحصلوا عليه. ولم يكن لدى الكثير من أعضاء اللجنة سابق معرفة بالصراع. فقد أضفى هذا على اللجنة حيرة، بل سذاجة، فى طريقة فهمها للموقف فى فلسطين، بيد أن ذلك كان يعنى أيضًا أنها كانت عرضة للضغوط المباشرة دونما فهم للسياق.

هذه النقطة الأخيرة تم توضيحها بشكل درامى بوصول السفينة Exoudus وهى السفينة الشهيرة التى كانت تحمل المهاجرين اليهود إلى سواحل فلسطين خلال الفترة التى كان أعضاء فريق لجنة الأمم المتحدة (UNSCOP) يقومون بعملهم. وقد راقبوا بدهشة كيف اعترضت السلطات البريطانية، التى كانت ما تزال السلطة الحاكمة فى السفينة، ورفضت لركابها النزول، وفضلاً عن ذلك رفضت تحمل مسئوليتهم. وتضمن هذا رفض اعتبار خيار البقاء المؤقت فى بريطانيا نفسها. وبدلاً من ذلك تمت إعادة السفينة إلى ألمانيا. وليس هناك حادث، قبله أو بعده، سوف يلعب به الصهاينة بهذا القدر من الحسم. وسرعان ما صار مصير سفينة Exodus مادة لأسطورة[٦]. وبدا الحادث مؤكدًا القضية الصهيونية بشكل لا لبس فيه.

وهيمنت مسألة سفينة الإكسودوس على فريق لجنة الأمم المتحدة. ذلك أن زعماء الصهيونية كانوا بالفعل قد أقاموا علاقة معهم، صوابًا أم خطأً، أما زعماء العرب الفلسطينيون فقد قاطعوا اللجنة (Pappe 2001: 3). وحينئذ صارت أولوية لجنة الأمم المتحدة:

«مصير الناجين اليهود بدلاً من المطلب العربى بحسم مستقبل فلسطين وفق الحقيقة السكانية سنة ١٩٤٧م. وكان النتاج أن قررت اللجنة أن تقبل الرابطة بين مصير اليهود الأوروبيين ومصير فلسطين» (Pappe 2001: 25).

هنا كانت نقطة تحول حرجة فى النضال من أجل تأسيس الدولة اليهودية. فقد كان الصهاينة قد كسبوا حرب الدعاية بزمن طويل قبل إطلاق أول رصاصة فى الحرب

الحقيقية من أجل السيطرة على فلسطين، بعد ذلك بسنة، ١٩٤٨[٧]. وكان دور لجنة الأمم المتحدة باعتبارها «سمساراً أميناً» للرأى العام على اتساع العالم، كان فى الواقع موجهًا آنذاك لصالح الصهاينة، وقد تم إقرار ذلك بقضية السفينة Exodus.

كان الحليفان المنتصران الرئيسيان فى الحرب، بريطانيا والولايات المتحدة، مسئولين عن هذا الموقف. وبينما استوعبتا بالفعل الكثير من الناجين، فإنهما لم تكونا مستعدتين بالتأكيد لأن تقدما للباقين إذنًا بالاستقرار فى بلديهما (Pappe 2001: 576n. 32). بل إنهما لم تكونا جاهزتين حتى للبناء على مقاصد مؤتمر إيڤيان الدولى قبل الحرب واستخدام الأمم المتحدة باعتبارها الوسيلة الواضحة بعد الحرب للاستجابة الدولية المشرفة لأزمة اللاجئين اليهود. وفجأة بدت الحالة الصهيونية وكأنها وسيلة تدعو للإعجاب فى حل «المشكلة». وكانت هذه إعادة تدوير للمستويات الأخلاقية المتدنية تمامًا للسلوك الدولى كما جسده السياسى البريطانى بلفور، والذى نعرضه فى الفصل الأخير: إقلب اليهود غير المرغوب فيهم إلى فلسطين.

ومن المحتمل أن بعض السياسيين الأمريكيين «بعيدى النظر» كانوا قد عرفوا فعلاً مدى ما يمكن أن تسديه دولة يهودية جديدة من خدمات لمصالح الولايات المتحدة. ومن المؤكد أننا نعرف أن قادة جيش الولايات المتحدة العسكريين قد انبهروا بانتصار إسرائيل فيما يسمى «حرب الاستقلال» ضد العرب. وكان لهم أن يصفوا الدولة الجديدة بأنها القوة الإقليمية الكبرى بعد تركيا، وتقدم للولايات المتحدة الوسيلة التى تحقق لها «الميزة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط التى سوف تمحو آثار تدهور القوة البريطانية فى المنطقة» (Chomsky 1996: 204). بيد أن هذا ما سنناقشه فى الفصل التالى.

أين كان الناجون من الهولوكوست أنفسهم يريدون الاستقرار؟ لقد أخبر الچنرال كلاى، الحاكم العسكرى الأمريكى لألمانيا، فريق لجنة الأمم المتحدة أنه بتجربته يرى أن الناجين من المعسكرات يختارون الذهاب إلى فلسطين، ولكنه أضاف قائلاً: «أنا لا أعرف طبعًا كيف يمكن أن يصمد هذا فى مواجهة فتح البلاد الأخرى للهجرة» (Pappe 2001: 27). وتلك هى المشكلة. نحن لا نعرف لأن ذلك لم يكن أبدًا محل اختبار. وعلى أية حال، فإننا نعرف كيف نجح الصهاينة فى العمل داخل معسكرات الترحيل،

أى المعسكرات التى أقيمت للناجين. فقد كان باستطاعتهم تنسيق شهادات الناجين أمام لجنة الأمم المتحدة UNSCOP. وقد تم تلقين المهاجرين الذين تم اختيارهم لمقابلة اللجنة الدعاية الصهيونية والمصطلحات الصهيونية تمامًا.

وبنهاية سنة ١٩٤٩م، أى بعد سنة واحدة فقط من تأسيس الدولة اليهودية، كان هناك ما يقرب من ٣٥٠ ألف من الناجين من الهولوكوست يعيشون فى إسرائيل يمثلون ثلث جمهرة السكان تقريبًا. (Seveg 1993: 154) . وفى حرب ١٩٤٨م، كان حوالى ثلث الجنود من الناجين من الهولوكوست (Seveg 1993: 176).

وظهر أن التبرير الأخلاقى لتأسيس إسرائيل قد تعزز بفضل هذه البقية الحية من الهولوكوست. ومع ذلك فإنه بمقاييس الأخلاق، ينبغى أن نناقض فوراً هذه الحقيقة بالغة الأهمية بحقيقة أخرى. ففى بواكير سنة ١٩٤٧م، كان اليهود يملكون ٧ بالمائة من الأراضى بفلسطين، وبعد ذلك بسنوات ثلاث كانوا قد استولوا على ٩٢ بالمائة من الأراضى داخل الدولة الجديدة، بما فى ذلك مساكن العرب ومبانيهم من كل نوع (Kimmerling 1983:143). وكما لاحظ أندرسون، كان هذا يشكل احتلالاً استيطانيًا بمعدل واسع وسريع، لم يسبق له مثيل فى تاريخ الاستيطان. (Anderson 2001:12) وبمعنى يصعب جداً تحديده، هناك رابطة بين جسامة جريمة الهولوكوست التى ارتكبت فى حق ضحاياها الرئيسيين وكثافة الاحتلال الاستيطانى الذى جرى باسم هؤلاء الضحايا. كذلك كانت هناك وحشية، ذات مضامين تتصل بالإبادة العرقية، فى قلب موجة الاستيطان تسبب إزعاجًا مشابها لما سببه الهولوكوست.

ديرياسين والنكبة

فى ٩ أبريل ١٩٤٨م، وأثناء الحرب التى قد بدأت آنذاك بين الصهاينة والعرب، قامت إحدى الميليشيات الصهيونية الموصومة بالتعصب بصفة خاصة، والتى كان يقودها مناحم بيجين، بدخول قرية دير ياسين العربية، وذبحوا معظم سكانها البالغ عددهم أربعمائة نسمة. وقد سجَّل چاك دى رينيه من هيئة الصليب الأحمر الدولى التفاصيل الشنيعة (Hirst 1977: 128). وسرعان ما صارت دير ياسين رمزاً لمدى كثافة الإرهاب الذى كان الصهاينة على استعداد لممارسته لإجبار الفلسطينيين على الفرار من دورهم.

ودير ياسين والنكبة، تعبران عن كيفية تذكر الفلسطينيين لطردهم الإجبارى من وطنهم والذى شمل حوالى ٧٥٠ ألف قروى فلسطينى، وهو ما يرتبط أيضًا بطريقة غير مؤكدة بجسامة جريمة الهولوكوست. وموضوع خاتمة هذا الفصل هو (مناقشة هذه المسألة). ففى السنوات الأخيرة، قام بعض اليهود من ذوى العقليات التقدمية فى بريطانيا وأصدقاؤهم من الفلسطينيين والعرب الآخرين بالبدء فى تخليد ذكرى دير ياسين. وقد أثار هذا نقاشًا رئيسيًا داخل الجماعة اليهودية. وقد وجد عفيف صافية، المندوب العام الفلسطينى فى المملكة المتحدة، والسفير الفلسطينى فى الوقت نفسه، مشتبكا فى الجدل الدائر على صفحات الأدب فى جويش كرونيكل، مع رجل دين يهودى بريطانى معروف قليلاً لم يكن لديه استعداد لقبول تفسير دير ياسين طبقًا للخطوط العريضة الواردة فى السطور السابقة. ورد عفيف جاء فى صميم الموضوع تمامًا، كما يلى:

«لندن ١٠ أبريل ٢٠٠١

الرابای (الربى) الدكتور سيدنى بريشتو (Letters, March 30) يبدو متضايقًا من الاقتباس من كلام حاييم وايزمان فى الكتيب الذى يحمل عنوان (Deir Yassin Remembered) لأنه يقول: «لقد كان ذلك تطهيراً إعجازيًا للأرض». بيد أنه لا ينازع بشأن صحة الاقتباس ودقته».

وعن الهروب الجماعى للفلسطينيين فى سنة ١٩٤٨م، قال بن جوريون أيضًا: «لقد كان ذلك تبسيطًا إعجازيًا للمشكلة». وأود أن أعرف يومًا ما رد فعل الدكتور بريشتو، باعتباره زعيمًا روحيًا، للاستخدام المفرط لكلمة «إعجازى». وأما بالنسبة لى فقد كنت دائمًا أعتبر أن الله برىء من هذا. لقد وثق المؤرخون الفلسطينيون حتى الآن ٥٣٧ قرية سويت بالأرض فى سنة ١٩٤٨م على أيدى السلطات الإسرائيلية، وذلك لكى تحول دون إمكانية عودة اللاجئين الفلسطينيين. أما بالنسبة لدير ياسين فإن الراحل مناحم بيجين قد تفاخر فى مذكراته التى نشرها ١٩٥٢م بعنوان «La Révolte»، قائلاً إنه بدون دير ياسين لما كانت هناك إسرائيل، وأنه بعد دير ياسين، تمكنت القوات الصهيونية من التقدم مثل «سكين ساخن فى الزبد». وقد نُصح فيما بعد بأن يحذف هذا من الطبعات التالية لمذكراته».

لقد أوقعت المؤسسة السياسية الإسرائيلية بالفلسطينيين أربعة صنوف من الإنكار. أولاً جاء إنكار وجودنا ذاته. ثم تلاه إنكار حقنا. وكان هذا كله مصحوبًا بإنكار معاناتنا وإنكار مسئوليتهم الأخلاقية والتاريخية عن هذه المعاناة. إن إنكار الدكتور بريشتو للنكبة مزعج بنفس الدرجة.

إننى لم أربط أبدًا بين النكبة والهولوكوست. وكانت قناعتى دائمًا أنه لا حاجة بنا للمقارنات والمشابهات التاريخية.

«ليس هناك شعب واحد يحتكر معاناة البشر وكل مأساة عرقية لنفسه. ولو كنت يهوديًا أو غجريًا، فإن بربرية النازية ستكون أشد أحداث التاريخ شناعة. وإذا ما كنت أفريقيًا أسودًا لكانت العبودية والفصل العنصرى هى أشنع الأحداث التاريخية. وإذا كنت من سكان أمريكا الأصليين لكان اكتشاف العالم الجديد على أيدى المستكشفين الأوروبيين والمستوطنين الذى نتجت عنه الإبادة الكلية تقريبًا هى الأشنع. وإذا ما كنت أرمنيًا، لكانت الحوادث الأشنع فى التاريخ هى المذابح التى ارتكبها العثمانيون. ولكن ما حدث هو أننى فلسطينى، وبالنسبة لى تمثل النكبة أسوأ أحداث التاريخ. ينبغى على الإنسانية أن تعتبر ما سبق ذكره أمرًا كريهًا. ولست أعتبر أنه من حسن المشورة أن نجادل فى تراتيب المعاناة. ولست أعرف كيف نقيس كمية الألم أو نقيس المعاناة. وما أعرفه حقًا هو أننا لسنا مخلوقات لإله أقل».

عفيف صافيه

وإذ بدأ يسرد ذكرياته الشخصية عن النكبة[٨] فى اجتماع حاشد فى المركز الثقافى المصرى بلندن أوائل سنة ٢٠٠٣م، وصف الكاتب الراديكالى والمذيع طارق على ضحايا النكبة بأنهم ضحايا إضافيون للهولوكوست. إن «النظرات» و«التحذيرات» التى نناقشها فى هذا الفصل تؤكد حقيقة هذا الافتراض.

عبَر وتحذيرات من الهولوكوست والنكبة

فى عصر الفظاعة والوحشية، تم التضحية بحياة الفلسطينيين لخلق فضاء لحياة اليهود على الأرض الفلسطينية التى أعيدت تسميتها بالأرض اليهودية. وعلى مدى جيل كانت محاولة بناء هوية يهودية صهيونية تنكر بوضوح الهوية الفلسطينية. وقد

أدت المواجهة الطويلة مع الفلسطينيين إلى هذه الانفجارات الصهيونية الكثيرة التى لها تشابهات مع العنصرية التى تؤمن بالإبادة والاستخدام المطلق للعنف فى العصر النازى.

ويتم تكريس الدكتور باروخ جولد شتاين، الصهيونى الأمريكى المولد والمستوطن الذى فتح النار فى هجوم بسلاح الجيش الإسرائيلى ((Shlaim 2000: 524)، وقتل ٢٩ من المصلين المسلمين فى ضريح الخليل باعتباره رجلاً يحمل حلمًا فى بعض دوائر المستوطنين الصهاينة.

وقد كتب الروائى الإسرائيلى، داڤيد جروسمان، فى أعقاب اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى اسحق رابين، على يد صهيونى يمينى متطرف آخر، محذرًا الإسرائيليين من أنهم إذا ما استمروا فى تجاهل «عمق السم الداخلى الذى يسببه لنا استخدامنا الهائل للعنف»، فإنهم سوف يهلكون (Jewish Chronicle, 10 November 1995).

وفى بعض الأحيان يكون الناجون من الهولوكوست أنفسهم مجبرين على رصد التشابهات. فقد أضرب الدكتور شلومو شميلزمان عن الطعام أثناء الغزو الإسرائيلى لبيروت الغربية فى لبنان سنة ١٩٨٢م. وفى خطاب التفسير الذى أرسله، كتب:

«فى طفولتى عانيت الخوف، والجوع والإهانة عندما عبرت من الجيتو فى وارسو.. إلى بوشنوالد.. إننى أسمع اليوم الكثير من الأصوات المألوفة.. إننى أسمع عبارة «العرب القذرون» وأتذكر عبارة «اليهود القذرون». وأسمع عن المناطق المغلقة، وأتذكر مناطق الجيتو والمعسكرات. إننى أسمع عبارة «الوحوش ذات الساقين» وأتذكر العبارات الألمانية المشابهة و«Untermenschen» «أدنى من البشر».. إن هناك أشياء أكثر مما ينبغى فى إسرائيل تذكرنى بطفولتى» (Chomsky 1999: 257).

وحدث أثناء الحصار الإسرائيلى لبيروت أن قامت ميليشيا مسيحية متعصبة تساندها قوات الدفاع الإسرائيلية التى أغلقت مخيمى اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا، «بالدخول إلى المعسكرين وذبحت السكان بطريقة همجية.. تحت مراقبة قوات الجيش الإسرائيلى التى كانت على مسافة عدة ياردات قليلة» (Chomsky 1999 : 364 - 5).

وقد صدمت مذابح صابرا وشاتيلا العالم. ووصفت بأنها جريمة حرب. ومفهوم

«جريمة حرب» نفسه حصاد محاولات تحديد النظام القانونى الجديد فى العدالة العالمية بعد ظلال الفترة النازية.

ونحن نتعامل هنا مع العبر والتحذيرات من الهولوكوست. ونحن لا نناقش المساواة بين الصهيونية والنازية. بيد أن الرفض الأيديولوچى لإدراك أن الصهيونية والتطلعات المشروعة للشعب الفلسطينى نقيضان لا يلتقيان يمكن أن يستمر ليؤدى إلى تجذير الصهيونية فى تطرفها، ويطلق عنان تجليات أكبر مما سبق فى عنف الإبادة العرقية. وثمة دوامة يمكن أن تنفتح حيث يمكن أن تنهار المعايير المتحضرة التى ما تزال تمارس بعض الكبح نهائيًا. ونحن لا نفهم بشكل كامل ما هو بالضبط الذى يؤدى إلى هذا الانحدار صوب البربرية[٩].

ومن حسن الطالع، أنه ما يزال هناك وقت لتجنب هذا. فقد تراجع نظام الفصل العنصرى، وحلَّ نفسه، وسوف نتأمل ما إذا كان التطور «فيما بعد الصهيونية» فى إسرائيل يشى بإمكانية تراجع مشرف مماثل بشكل موجز فى الخاتمة.

***

حاول هذا الفصل أن يتحدى الطريقة التى استغلت بها الدولة الإسرائيلية الهولوكوست لإضفاء المشروعية السياسية عليها. وقد تم اقتراح أن العبر والتحذيرات التى تصدر عن استكشاف التوترات بين الجوانب العالمية والجوانب الخاصة فى الهولوكوست تشير فى اتجاه مختلف تمامًا. وبمعنى ما، فإن هذه العبر والتحذيرات مفهومة تمامًا. إذ إنها تتوافق مع الخطاب الراسخ الآن عالميًا بشأن العدالة، كما أنها أسهمت فيه، وهو خطاب حقوق الإنسان وحقوق المواطنين، باعتراضه غير المشروط على الاحتلال الاستيطانى والعنصرية بكافة أشكالها، ودفاعه عن الحقوق العالمية للاجئين[١٠] وبمعنى حقيقى تمامًا تتم صياغة قوانين أخلاق دولية جديدة. وهذا يعزز الاستجابة العدائية من الرأى العام العالمى للطريقة التى تتصور بها الحكومات الإسرائيلية المعاصرة حاجاتها الخاصة المحددة بشكل ضيق فى مواجهة حاجات الشعب الفلسطينى. وفى الفصل الأخير سوف ندرس المضامين النهائية.

لا تجعل الندبة تقوم بعمل الجرح

لقد ترك لنا بيتر نوفيك عبرة وتحذيراً نهائيًا على استغلال الذاكرة عن المآسى العميقة. وهو يقتبس فقرة من كاتب، هو ابن أحد الناجين من الهولوكوست، اسمه ليون ڤيسيلتير، محذراً من أن الذاكرة الجماعية للاضطهاد يمكن غرسها:

«إن إحساسًا معزولاً... بالانفصال... إنه يحول التجارب إلى تراث لأنه يلغى الزمان والمكان، فالذاكرة الجماعية... جعل الفرد والجماعة فى حالة شك طاغية حول التغيير، ولا تعدهم للانقطاع.. وتعاليمها تقول لا تنخدعوا، لا يوجد غير التكرار...

فى ذاكرة الاضطهاد، يعيش الاضطهاد أكثر من عمره. وتقوم الندبة بعمل الجرح.. وتكون للظلم قوة التشويش الذى يستمر طويلاً بعد توقفه حقًا. إنه انتصار للطغاة بعد موتهم عندما يصير الألم تراثا»[11] (Novic 1999: 281).

***